

الفصل الخامس

القاهرة.. الطابع الإفرنجى

وأغلب أولاد البلد فى القاهرة يقبلون على شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنه، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الإفرنجية. وكلمة «أفرنجى» هى المقابلة لكلمة «بلدى». إنها النطق العربى لكلمة «فرانك» وهى اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا فى القرن الخامس وأطلق فى الشرق على الأوربيين عامة، فهى تعنى الآن فى موضوعنا كل ما هو ليس بمصرى، أو كل ما هو أجنبى. وكان التفرنج يعنى فى البدء - علاوة على لبس البنطلون - الرقص الأوروبى على أنغام الموسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية فى حجر الاستقبال

بدلاً من لافتات الخط العربي وأثاث من طراز لويس الخامس عشر - يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدى! - ويعنى فوق ذلك أيضاً إيداع النقود فى بنك لا فى شكمية كان هذا فى البدء، أما الآن فقد أصبحت جميع هذه الأشياء من صميم الحياة فى القاهرة بحيث انقطع الإحساس بأنها من اختصاص الإفرنج.

والمتفرنج القاهرى (وهو مسلم فى تسع حالات من حالات عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة»، وهذا لقب صيغ فى الأصل ليطلق على كل من هو مسيحي أجنبى وإن شمل أحياناً القبطى: المصرى المسيحي أيضاً. ويعيش المتفرنج القاهرى والخواجة جنباً إلى جنب فى وئام أشد من وئام المسيحيين والمسلمين فى قبرص، إلا أن لكل منها حساباً مختلفاً للآخر. قد يكون نمط حياتها متشابهاً، ولكن «الخواجة» الذى كان من قبل يتميز بسطان اكتسبه إبان هيمنة الغرب المسيحي على أقدار العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجة» ذاتها. - وهى من ألقاب التكريم فى لبنان - أصبحت فى

مصبر تبطن معنى الازدراء، لذلك يفضل الأجنبي أن يكون النداء عليه «يا سيد» بدلاً من «يا خواجه» فإن كلمة سيد في مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» في إنجلترا.

والطبقة الوسطى هي العنصر الحاكم على القاهرة الحديثة، فمن صفوفها خرج أولئك الذين يخططون العاصمة كما هي اليوم، ويرسمون لها أذواقها، ويقودون ثورتها. وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثاً من الجماهير البلدية، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الأرض، وكان كسر احتكار الأسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية، والفروق بين الطبقات المائعة، والطبقة الوسطى آخذة في النمو، وقد نحس حجمها من نتائج احصاءين، فبينما لا يزيد عدد أصحاب السيارات في القاهرة عن ٧٠ ألفاً نجد ما لا يقل عن ٦٠٠ ألف من سكانها بين موظف حكومي أو مستخدم، وفئة المستخدمين تشمل أناساً قد وضعوا قدماً - على الأقل - على أول سلم الطبقة الوسطى.

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة في كل الأحياء السكنية، ففي شوارع يغلب عليها الطابع البلدى بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة في الطرقات، تتعالى عمارات تسكنها أسر متفرجة، وإن بقي لها أقارب في القرية أو في المدينة. ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع الإفرنجى. والزمالك هي أكثرها عمراناً وأشدّها افتقاراً إلى السمة الذاتية وهي تمتد مسافة ميل ونصف في شمال «الجزيرة»، هنا تتبادل أشجار البوجانفيليا والزاكندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات وأعيان القاهرة. أما الطرف الجنوبي من «الجزيرة»، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى الجزيرة، وكان هذا النادى في وقت ما وقفاً على الموظفين الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب، واليوم ورثه المصريون عنهم..

أما الروضة - الجزيرة الجنوبية - فهي أقل طولاً من «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف وأقل منها أيضاً تعالياً، فإن عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى إليها إلا لابسو

البنطلون، أما لابسو الجلابيب فهم الخدم والباعة، على حين أن الشاطيء الغربي للروضة تتسم مساكنه بالترف.

وفي أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشا مصرى متزوج من سيدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطب الفرعونى القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثرى قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شراً فتحداها أن تظهر قدراتها، فحبست عنكبوتاً ساماً في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضاً من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء، ثم اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هى هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا فى المستشفى على وشك الموت - فيما يبدو - بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدماها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذى كان على وشك الموت جوعاً داخل البرطمان قد فرض طريقاً عميقاً داخل التمثال، ربما

سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فما أن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية في الحال.

والطبقة الوسطى غالبية أيضاً على الشاطئ الغربي للنيل عند محافظة الجيزة، تحيط هناك بإحدى مؤسساتها - وهي الجامعة - وكذلك غالبية هي على مصر الجديدة والمعادي، وكانت الضاحية الأخيرة خالصة لسكنى الأوروبيين، أما اليوم فإن العنصر المصري شائع فيها..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى، هم اليوم على غير ما هم عليه، وأنت إذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها في القاهرة يوافقك على رأيك، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تمييز متفضل، فالذي يقول إنه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول إنه متحمس للزئوج. والطبقة الوسطى في

القاهرة - كالأشأن بها في كل بلد - هي منبت أفراد للأمة وهذا هو مبرر وجودها. وأشخاص رواية «الرجل الذي فقد ظله» - وتجري حوادثها في حي قاهري - يصفهم مؤلفها فتحي غانم تعميماً بأنهم قساة وأنهم جديرون بالسخرية والرثاء معاً، ولكنهم شهود على القرن العشرين في كل مكان، وليهنأ القارئ الأجنبي إذا لم يجد نفسه صورة أخرى من هذا الانتهازي المجرد من البطولة الذي جعله المؤلف بطل روايته. وهذه الرواية - ومعها كتابات أخرى عديدة - تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضي وأزياءه. وقد وصف فتحي غانم حادثاً بقي في ذاكرته منذ طفولته كحادث هام، حين تحدث عن أبيه القروي الذي كان أول فرد في الأسرة خلع الجلابية، فإن أباه هذا ذهب إلى طبيب ليمحو بالكي آثار وشم على يده، وكان الصبي يعجب بهذا الوشم وأحزنه أن تختفي عن يد أبيه رسم الثعابين والتروس، فلما كبر الصبي أدرك أن هذا الكي في غير ضرورة هو رمز مأسوي لطبقة نبذت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة لهم بعد..

وسواء كان هذا التحول صواباً أو غير صواب فإن
تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال - هي التي
تحدد للعاصمة رسمها، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل:
أى المباني يهدم وأيها يبقى وأيها يقام. وتدشين انتصار
الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى إنشاء
كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلو متراً فقد ظل هذا
المشروع موضع بحث طال سنين عديدة، ثم إذا به يتم
تنفيذه خلال أسابيع قليلة، والآن يتمتع المصريون من
جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقاً رئة جديدة
للعاصمة..

وتهميم الطبقة الوسطى بما هو ضخم، حديث، مريح،
فها هو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له إشعاع صورة
الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون أجهزة التليفزيون
أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة.
وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية
وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و١٦ دقيقة
وكذلك برج القاهرة، إنه خارج من أحضان الطبقة

الوسطى، وقد وصفته إحدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الإسلامي الحديث، ولكنه يشبه سلة مهملات الورق، ضخمة متعالية، وفي سطحه مطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطيء جدًا بحيث أن الذين يتناولون فيه - وسط جو من المرح - وجبة كاملة (حساء - لحم - فاكهة) إذا رفعوا أبصارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا» رأوا أن المنظر قد تبدل كل التبدل، أصبحت الأهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك.